الفصل الثانى

ابن قتيبة فى عصره

١ ــ نشأته

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى[١] ، كان والده فارسيًّا من مرو الروذ[٢] وتختلف المصادر فى البلد الذى ولد فيه ابن قتيبة ، فيذكر ابن النديم أنه الكوفة[٣] ويذكر الخطيب البغدادى أنه بغداد[٤] . ويبدو أنه ولد بالكوفة . ولم يقم بها كثيراً فانتقل فى صباه على الأرجح إلى مدينة السلام ، فطالت إقامته بها حتى عد من أبنائها .

وقد أثرت حياة بغداد فى نشأته الفكرية ، إذ أنه تلقى العلم على جماعة من علمائها الأجلاء ، فأخذ الحديث عن أئمته المشهورين فيه مثل إسحاق بن راهويه ، وتلقى النحو عن جماعة من علماء الكوفة والبصرة ، مثل أبى حاتم السجستانى .

وتأثر فى شبابه بما كان يدور فى أوساط العلماء من جدل وتناظر بين المعتزلة وأهل السنة ، ولمس فى فجر حياته غلبة المعتزلة على الحياة الفكرية ، فأعجب ــ على مايبدو ــ بآرائهم كما يحكى فى « تأويل مختلف الحديث »[٥] .

---

(١) دينور : ودينور فى المصادر السريانية مدينة من أهم مدن جبال Media يرجع تأسيسها إلى الجاهلية وكانت فى عهد الخليفة عمر أعمر مدينة فى إقليم همذان وقد سلمها الوالى الفارسى للعرب عقب وقعة نهاوند الحاسمة مباشرة (حوالى عام ٢١ هـ) وقد ازدهرت أيضاً ازدهاراً كبيراً فى عهد الأمويين والعباسيين .

(٢) « الأشربة » لمحمد كرد على ــ ص ١ .

(٣) « الفهرست » ط أوربا .

(٤) « تاريخ بغداد » ١٠ / ١٧٠ .

(٥) « تأويل مختلف الحديث » ص ٧٤ .

وقد اختير قاضياً لمدينة الدينور ، وهى بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين كان بها جماعة من العلماء والمحدثين والمشايخ المشاهير[١] ، وقضى بالدينور زمناً اتصل فيه بأولئك المحدثين والفقهاء ، وتدارس أمور الدين والفقه ، ثم عاد إلى بغداد ، وهناك وجد شمس المعتزلة آخذة فى الأفول بعد أن تولى الخلافة جعفر المتوكل ، وساعد أهل الحديث والسنة على الظهور على منافسيهم . فتقدم هو ليدلى بدلوه ، وينتصر للسنة ، ويجمع من الآراء ، والكتب ما يعينه على ذلك.

واتصل ابن قتيبة فى بغداد برجال الدولة كعادة غيره من العلماء والأدباء وعرف منهم فى ذلك الوقت الوزير أبا الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وابنه المعتمد[٢] وأهدى إليه كتابه « أدب الكاتب » .

واستمرت حياته العلمية ببغداد ، فاشتغل بالتدريس للناس زمناً[٣] ، وكان يقرأ كتبه على تلاميذه ، ومن بينهم جماعة من العلماء الذين نبهوا بعد ذلك وكان لهم نتاج معروف مثل ابنه أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذى حدث بكتب أبيه فى مصر حين ولى القضاء بها ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه الكاتب الفارسى صاحب « أدب الكتاب » .

وقد شارك مشاركة جدية فى محاربة نزعات الشك والفلسفة التى غلبت على العقول فى ذلك الوقت ، وسيتضح هذا عند تناول اتجاهاته المختلفة فى كتبه . وقد توفى ابن قتيبة بعد أن قضى حياته فى خدمة الدين والأدب سنة ست وسبعين ومائتين على الأرجح[٤] ، وكانت وفاته فجأة ، صاح صيحة

---

(١) قرميسين : تشمل الأراضى السفلى من جبال ذا طسوجين أما دينور فتشمل الأراضى العليا منها .

(٢) « الأنساب » ٢٣٨ ط أوربا .

(٣) « وفيات الأعيان » ٢/٢٤٦ ط محيى الدين .

(٤) اختلفت المصادر فى سنة وفاته بين ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ .

راجع « ابن خلكان » طبع باريس ١/٣٥٤ و « تاريخ بغداد » ط السعادة ١٩٣١ ١٠/١٧٠ — ١٧٦ .

سمعت من بعد ثم أغمى عليه ، ومات . وقيل إنه أكل هريسة فأصابته حرارة ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه إلى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة ثم هدأ .

٢ ـ ثقافته وآراؤه وعقائده

ذكرنا عند الكلام عن ثقافة العصر أن المعتزلة أثاروا حركة فكرية واسعة فى عصر المأمون والمعتصم ، وأن كثيراً من الكتب اليونانية وغيرها من مختلف الثقافات قد نقلت إلى العربية وأثرت تأثيراً عظيماً فى ثقافة العصر وثمراته الباقية ، وأشرنا إلى النضال الفكرى بين المعتزلة وأهل السنة ، ولما كان ابن قتيبة أحد أبطال ذلك النضال ، فينبغى أن نقف عنده لنتعرف على جوانبه .

اتجه ابن قتيبة فى مطلع حياته إلى علم الكلام ، واجتذبته أضواؤه ، فجلس إلى كثير من علماء المتكلمين وأخذ عنهم واغتر بكلامهم فقد قال : « وقد كنت فى عنفوان الشباب وتطلب الآداب أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم ، فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغتر بهم طامع أن أصدر عنه بفائدة أو كلمة تدل على خير أو تهدى لرشد ، فأرى من جرأتهم على الله تعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد القياس أو لئلا يقع انقطاع ، ما أرجع معه خاسراً نادماً »[١] .

وقد أفاده اطلاعه على آراء المتكلمين فى جداله معهم ، إذ قارعهم الحجة بالحجة ، وقال لهم بالكيل الذى كالوا به لأهل السنة والحديث ، وتأثر ابن قتيبة بآراء أبى حاتم السجستانى وشيخه المحدث إسحاق بن راهويه ودافع عنها[٢] .

ويبدو أنه كان ملمًّا بالفارسية[٣] ، مطلعاً على كثير مما جاء فى الكتب السماوية مترجماً ، فقد استشهد فى كثير من آرائه بما جاء فى التوراة والإنجيل .

---

(١) « تأويل مختلف الحديث » ص ٧٤ .

(٢) « تأويل مختلف الحديث » ص ٦٥ .

(٣) كثيراً ما يذكر فى كتبه « قرأت فى كتب العجم كذا وكذا » .

وفى كتبه دلائل كثيرة على إلمامه بالفلسفة ، منها ما ينقله عن أرسطو صاحب المنطق ، كما ينقل عنه بعض المعلومات فى الطبيعة كأن يقول : « وكيف لا يعجبون من حجر يجذب الحديد من بعد ويطيعه حتى يذهب به يميناً وشمالا بذهابه ، وهذا حجر المغناطيس ، وكيف صدقوا بقول أرسطاطاليس فى حجر السنقيل أنه إذا ربط على بطن صاحب الاستسقاء نشف منه الماء إلخ[١]. كما أنه يذكر فى « تأويل مختلف الحديث » أنه اتصل بأيوب المتطبب ، وحنين ابن إسحاق .

واختلطت دراساته الفلسفية ، والمنقولة عن العجم واليونان بآرائه الدينية ، ومع أنه كان من المنتصرين لأهل السنة المدافعين عن مبادئهم وآرائهم ، فقد اتهمه بعضهم بالخروج؛ قال الذهبى[٢]: « وقال الحاكم أجمعت الأمة على أن القتبى كذاب ، واتهم بأنه كان خبيث اللسان يقع فى كبار العلماء »[٣] . كما اتهم بأنه منحرف عن العترة ، وأنه يميل إلى التشبيه ، ويرى رأى الكرامية الذين يغالون فى التشبيه والتجسيم . قال الذهبى : « قال البيهقى كان يرى رأى الكرامية »[٤] .

ولم يرض عنه أنصار الفلسفة ، وساءهم هجومه عليها وتقلله من شأنها ، فاتهم بالجهل بها وعدم المعرفة .

ولكنه على الرغم من تلك الاتهامات التى وجهت إليه ظل محتفظاً بمكانته العلمية الرفيعة ، وظل يمثل الجاحظ فى أهل السنة ، ولم ينس فضله جماعة من فضلاء المؤرخين ، فأشادوا به . ومن هؤلاء الخطيب البغدادى ، والحافظ الذهبى ، والسيوطى — وقد سخر من قول الحاكم « اجتمعت الأمة على أنه كذاب »

---

(١) « أدب الكاتب » و « شرح أدب الكتاب » للبطليوسى ص ٤٣٨ .

(٢) مقدمة « الأشربة » لمحمد كرد على ص ٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٥ .

(٤) « ميزان الاعتدال » .

فقال : « وما أعلم الأمة اجتمعت إلا على كذب الدجال ومسيلمة ! ! »[١] وقدره ابن تيمية حق قدره ، ووضعه فى المكان اللائق ، ونفى عنه ما وجه إليه من طعن وتجريح ودافع عنه فى تهمة التشبيه وقوله بآراء الكرامية ، واعترف بأنه إمام أهل السنة فى زمن كان الجاحظ فيه إمام المعتزلة وخطيبهم قال : « وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة » ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لا خير فيه[٢] .

وذكر يوهان فك فى « العربية » أنه أبرز الأدباء الممثلين للتجديد السنى[٣] .

ويعتبر ابن قتيبة كاتب أهل السنة فى النصف الأخير من القرن الثالث ، فقد ألف كثيراً من الكتب تناول فيها قضية السنة والحديث ، وما وجه إليهما من اتهامات على أيدى المعتزلة ، وانتصر للمذهب ، وللمحدثين ومناهجهم فى العلم والعقيدة ، وأظهر هذه الكتب وأسيرها كتاب « تأويل مختلف الحديث » ، و « الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة » ، و « المسائل والأجوبة »

والأساس الذى تقوم عليه آراؤه هنا لا تتضح حتى نعرض لما كان يوجهه المعتزلة لأهل السنة من اتهامات ؛ فقد عرف المعتزلة بأنهم أهل التوحيد والعدل لأنها أصل عقيدتهم أو فلسفتهم الدينية ، والتوحيد عندهم أن الله واحد منزه عن الخلق لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شىء ، وكل ما يمس هذا الاعتقاد من قريب أو بعيد عندهم فهو باطل مشكوك فيه ، ويتفرع على هذا أن الله تعالى لا تنفصل صفاته عن ذاته ، ولا يجوز أن يشبه خلقه فى شىء من تلك الصفات ، لذلك تأولوا ما جاء فى القرآن من ألفاظ قد توحى بغير عقيدتهم . ويرى أهل السنة التسليم بما جاء فى القرآن والحديث كما هو لا يتأولونه ، وهم وراء هذا يرون أن صفات الله تعالى منفصلة عن ذاته ، فالله عالم بعلم وقادر

---

(١) « بغية الوعاة » .

(٢) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ص ١٣٣ ط المنيرية بمصر سنة ١٣٥٢ .

(٣) « العربية » ص ١٣١ .

بقدرة . وقد يوضح هذا الخلاف ما ذكره الطبرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ﴾ قال : وقد اختلف أهل الجدل — وهم المتكلمون — فى تأويل قوله تعالى ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ قال بعضهم عنى باليد النعمة أو القوة أو الملك، وقال آخرون : بل يد الله صفة من صفاته، هى يد غير أنها ليست بجارحة، واستدلوا على استحالة المعنى الأول بأدلة منها قالوا : وذلك أن الله — تعالى ذكره — أخبر عن خصوصية آدم بما خصه به من خلقه إياه بيده ، ، وكان لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم ، إذا كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته ، ومشيئته فى خلقه تعمه ، وهو لجميعهم مالك . قالوا: وإذا كان — تعالى ذكره — قد خص آدم بذكره خلقه إياه بيده دون غيره من عباده ، كان معلوماً أنه إنما خصه لمعنى فارق غيره من سائر الخلق ، وإذا كان كذلك بطل قول من قال : معنى اليد من الله القوة أو النعمة أو الملك[1] .

وأما مبدأ العدل فمعناه أن الله عادل لم يخلق الناس وهو مقدر لما يعملون من خير أو شر ، وإلا ما كان ثواب الجنة وعذاب النار ، فأعمال الإنسان فى الحياة باختياره ، ليس من العدل نسبتها للقدر . وإنما غاية الأمر أن الله تعالى يصطفى من عباده الأخيار من يرضى عنهم فيهبهم اللطف الذى يعينهم على السير فى طريق الخير ، ويحجبه عن عباده الذين لا يرضى عنهم فيسيرون كما توحى لهم أنفسهم .

ويرى أهل السنة عكس ذلك ، وأن القدر يتدخل فى أعمال الإنسان ، لذلك سموا المعتزلة بالقدرية ، لأنهم نسبوا القدر إلى أنفسهم .

تلك هى الأصول ، وأما الفروع فما اختلفوا فيه منها القول فى إعجاز القرآن ، فقد خرج النظام على جماعة المسلمين برأى فى الإعجاز مؤداه أن القرآن معجز لأن الله صرف الخلق عن الإتيان بمثله قال الشهرستانى : « إنه

---

(١) « تفسير الطبرى » . وراجع « مذاهب التفسير » لجولد تسيهر ص ٩٥ .

كان يرى أن إعجاز القرآن من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ومنع العرب من الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما »[١] .

وقال الجاحظ تلميذه : إن النظام وأصحابه كانوا يزعمون أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان[٢] .

ويرى أكثر المعتزلة وأهل السنة أن القرآن معجز ببيانه وأسلوبه الرائع الذى لاتستطيعه العرب ، والذى ظهر عجزهم عنه منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم . يقول الجاحظ إن معجزة النبى فى القرآن كانت قاطعة ، وكان موقعها فى العقول كموقع فلق البحر بالنسبة للعين[٣] ، كما يذكر أن العرب لم يقدروا على الإتيان بمثله عجزاً ووهناً ، لا تهاوناً ولا تغافلا ، لأن الإتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلا بأن يكفيهم شر قتل الأنفس والأولاد . ثم يرى أن الإعجاز متصل بالنظم وحده ، أى الأسلوب ، بصرف النظر عن معانيه[٤] .

وتعرض كثير من العلماء فى عصر الجاحظ لإعجاز القرآن من ناحية نظمه وبيانه ، وتعرض ابن قتيبة من وجهة نظر أهل السنة لهذه المسألة فى كتابه « مشكل القرآن » على ما سنعرض له عند تحليل الكتاب .

وكان الخلاف بينهم حول تفسير ما جاء فى القرآن من آيات المجاز والتشبيه والاستعارة وما يماثلها كذلك فى الحديث . قال الجاحظ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إنها شجرة تنبت فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ « وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل فى

---

(١) « الملل والنحل » طبع ليبزج ص ٣٩ .
(٢) « رسائل الجاحظ » طبع السندوبى ص ١٤٧ .
(٣) « رسائل الجاحظ » طبع السندوبى ص ١٤٣ .
(٤) « أثر القرآن فى تطور النقد » لمحمد زغلول سلام ص ٧٥ .

طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين ، واستسماجه وكراهيته وقد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل فى ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير ، وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله فى طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم ، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن »[1]. وقال : « والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير »[2]. وقال النظام : « لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ».

واختلف ابن قتيبة مع المعتزلة والجاحظ ، فإنه كان يرى كما قلنا رأى مذهبه ، ولا يحاول أن يبعد فى التأويل ، بل يفسر فى حدود النص تفسيراً لغوياً محدوداً على قدر ما تسمح به معانى الألفاظ الظاهرة . وقد اتهم بالتشبيه والتجسيم ، ولعل ذلك راجع إلى بعض ما أورده فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » ولكنه أوضح موقفه بصورة ناضجة فى « تأويل مشكل القرآن » ، فهو فيه معتدل لا يأخذ بمذهب أصحاب الظاهر من اللغويين ، كما ينفى تفسير المشبهة ، ويعرض فى كتاب « الرد على الجهمية والمشبهة » ما انزلق إليه هؤلاء من أخطاء .

وعارض المعتزلة المحدثين حول ما يمكن الاعتماد عليه من الحديث ، فكان عمرو بن عبيد لا يثق بهم[3] . وقد ذكر ابن قتيبة أنهم اتهموا أهل الحديث بالكذب والتناقض ، وأن النظام أنكر حجية الإجماع ، وغلب عليه القياس المنطقى ، والجواز العقلى ، كما أنهم نالوا من المحدثين بالسخرية ، والاتهام بالجهل وقلة المعرفة بالشعر واللغة ، أو أنهم « أجهل الناس بما يحملون وأنجس الناس حظاً فيما يطلبون » ، وقالوا فى ذلك :

زوامل فى الأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

---

(١) « الحيوان » ٤/٣٩ .

(٢) نفس المصدر ٦/٢١٢ .

(٣) « أثر القرآن فى تطور النقد » ص ٦٧ .

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأحماله ، أو راح ، ما فى الغرائر

وأنهم قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه . ورضوا بأن يقولوا : « فلان عارف بالطرق راوية للحديث ، وزهدوا فى أن يقال : عالم بما كتب أو عامل بما علم »[١] .

ويود ابن قتيبة على هذه الآراء ردًّا شاملا جامعاً فيرى « أن معانى الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر ، والكيفية والكمية ، والأينية ، ولو ردوا المشكل منها إلى أهل العلم بها ، وضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج »[٢]. وعنده أن إطلاق الأمر للرأى والقياس فى المسائل الدينية الدقيقة مثل صفات الله تعالى ، وقدرته ، ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يدعو إلى الخلاف والزيغ ، والأحسن فيها أن نلجأ إلى الحديث ونؤمن بما جاء به متعلقاً بها ، لأنها فى رأيه « أمور لا يعلمها نبى إلا بوحى من الله تعالى »[٣].

وبالرغم من دفاع ابن قتيبة عن الحديث ، فإنه لم يكن محدثاً بالمعنى المعروف ، قال الحافظ الذهبى : « أبو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية »[٤] ، وقال : « ابن قتيبة من أوعية العلم ؛ لكنه قليل العمل فى الحديث »[٥] ، وله كتاب فى « غريب الحديث » ، وآخر فى « إصلاح الغلط فى غريب الحديث لأبى عبيد » .

وكان يذهب فى الفروع مذهب أحمد بن حنبل ، فقد عاصره وأخذ عنه ، قال ابن تيمية : « وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد »[٦].

---

(١) « تأويل مختلف الحديث » ص ١٠ – ١١ .

(٢) نفس المصدر ص ١١١ .

(٣) نفس المصدر ص ٧٧ .

(٤) « ميزان الاعتدال » ٢/٧٧ .

(٥) « تذكرة الحفاظ » ٢/١٨٧ .

(٦) « تفسير سورة الإخلاص » ص ١٢١ .

٣ – بين ابن قتيبة والجاحظ

ذكر ابن قتيبة أنه أخذ عن الجاحظ وأنه أجازه ببعض كتبه[١] ، وقال ابن تيمية : ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ؛ فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة . وقد ذكر محمد كرد على فى مقدمة كتاب « الأشربة » ما كان بين ابن قتيبة والجاحظ ، وكيف أنه عنف فى ردوده على الجاحظ ، واتهمه بالكذب ، وكان فيما يبدو مندفعاً فى حمية الذود عن آرائه وآراء شيوخه وأصحابه ، فأفلتت منه عبارات فيها عنف وتجريح لعالم جليل وأستاذ من أساتذة الفكر العربى . قال فى شأنه : « ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة : وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشىء ونقيضه ؛ ويحتج لفضل السودان على البيضان وتراه يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ؛ ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل علياً رضى الله عنه ، ومرة يؤخره ؛ ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتبعه قال الجماز وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش ، ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر فى كتاب ذكرا فيه ، فكيف فى ورقة أو بعد سطر وسطرين ، ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم – وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل »[٢] .

---

(١) « عيون الأخبار » جـ ٣ ص ١٩٩ .
(٢) « تأويل مختلف الحديث » ٧١ – ٧٢ .

٤ ـ تأثره وتأثيره

وتنوعت دراسات ابن قتيبة اللغوية ، وقد سبق ذكرنا لأساتذته فى هذا الميدان ، ولعل من أبرزهم أبا حاتم السجستانى تلميذ الأصمعى ، وروى عن الكوفيين ، وأخذ عن البصريين وخلط بين المذهبين . قال ابن النديم : « إنه كان يغلو فى البصريين إلا أنه خلط فى كتبه عن الكوفيين وكان صادقاً فيما يرويه ، عالماً باللغة والنحو »[١] . وكان البطليوسى يقول إنه ذو مذهب ضعيف فى النحو[٢] ، وهو مع ذلك — كما عده السيوطى من النحويين[٣] ، ويعتبر إماماً لمدرسة بغداد التى مزجت بين آراء الكوفة والبصرة[٤] .

والباحث فى كتبه يرى أنه يستشهد بآراء علماء المدينتين ، ويختار لنفسه مذهباً بينهما وتارة يفضل آراء علماء أحد الفريقين ، وترى هذا كثيراً فى كتبه ، فهو يفضل آناً رأى أبى حاتم ، وآناً آخر رأى ابن السكيت ، وتارة يأخذ بما قال الفراء ، وتارة بما قال الكسائى وسيبويه .

وذكر الأزهرى ما ألفه ابن قتيبة فى اللغة ، وما رد به على علمائها ، فقال : « وأما أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ، فإنه ألف كتباً فى مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتاب " غريب الحديث " ، وكتاباً فى الأنواء ، وكتاباً فى أدب الكتبة ، ورد على أبى عبيد حروفاً فى غريب الحديث سماها " إصلاح الغلط " ؛ وقد تصفحتها كلها ، ووقفت على الحروف التى غلط فيها ، وعلى الأكثر الذى أصاب فيه . فأما الحروف التى غلط فيها فإنى أثبتها فى مواقعها من كتابى ، ودللت على موضع الصواب فيما غلط فيه . وما رأيت أحداً يدفعه

---

(١) « الفهرست » ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) « الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب » ٢٣ .

(٣) « بغية الوعاة » ٢٩١ .

(٤) « دائرة المعارف الإسلامية » م ٢٦٠ .

عن الصدق فيم يرويه عن أبي حاتم السجستانى ، والعباس بن الفرج الرياش ، وأبي سعيد المكفوف البغدادى . فأما ما يستبد فيه برأيه ؛ من معنى غامض أو حرف من علل التصريف والنحو مشكل ، أو حرف غريب ، فإنه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة . وألفيته يحدث بالظن فى ما لا يعرفه ولا يحسنه ، ورأيت أبا بكر بن الأنبارى ينسبه إلى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة ، وقد رد عليه قريباً من ربع ما ألفه من مشكل القرآن »[١] .

ويذكر الأزهرى فيما يذكر أنه قيل عن ابن قتيبة إنه يروى عن سيبويه والأصمعى وأبي عمرو وهو لم ير منهم أحداً ، ولم ير فى هذا نقصاً أو انحرافاً لأنه أخذ عن جماعة ممن حضروا عليهم[٢] .

وقد ترك لنا فى مجموعة كتبه ما يشهد على علو كعبه فى اللغة رواية ودراية ، ومنها « كتاب غريب الحديث » ، و « إصلاح الغلط فى غريب الحديث لأبي عبيد » ، و « تفسير غريب القرآن » و كتاب « الأنواء » ، و كتاب « أدب الكاتب » .

وكان إلى جانب علمه باللغة أديباً واسع الاطلاع ، صاحب ذوق وبيان ، جامعاً لعلوم الأدب بمعناه العام ، راوية للشعر وأخباره ، ملمًّا بدقائقه ، محيطاً بكثير من المعارف العامة التى ينبغى للأديب أن يتزود بها ، وكان فى كتبه الأدبية رجلا ذواقة ، يحسن الاختيار[٣] ، ينظر فى الشعر برأى صائب ، ولم يحب تحكيم المنطق والعقل ، كما لم يمل للتعنت اللغوى ، بالصورة التى كان يلقى بها اللغويون شعر المحدثين ، وكان ذوقه الأدبى رائده فى تفسير المشكل من آيات القرآن ، فكان يرجع للذوق العربى ، ولا يحكم القياس .

---

(١) « التهذيب للأزهرى ص ١٣ .

(٢) راجع مقدمة « مشكل القرآن » بتحقيق السيد أحمد صقر ص ٣٨ .

(٣) قيل فى حسن الاختيار :

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

وقد جمع إلى جانب هذا وذاك كثيراً مما يتصل بثقافة الكاتب والأديب من معارف عامة ، وسار على الدرب الذى انتهجه من قبل أبو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الدينورى ، ولذلك كان كثير من كتبه الأدبية يدور حول تربية الملكة العربية و « تحبيب اللغة إلى الدارسين والشادين »[١]. وكان يقصد من ورائها إلى إرشاد طبقة الكتاب وتعليمهم ، ووضع ثمرات ناضجة بين أيديهم يسهل عليهم هضمها والإفادة منها ، ولعل كتابه « أدب الكاتب » خير ما يمثل هذا الاتجاه الداعى إلى ثقافة الكتاب . يقول فى مقدمته : « فإنى رأيت كثيراً من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطأوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير . . إلخ » ولهذا يقول : « فلما رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان ، وخشيت أن يذهب رسمه ، ويعفو أثره جعلت له حظًّا من غايتى وجزءاً من تأليفى ، فعملت لمعقل التأديب كتباً خفافاً فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل لأنشطه لتحفظه ودراسته »[٢].

وقد أعجب الناس بكتبه الأدبية ، ذكر السمعانى أن الأمير أبا نصر الميكالى قال : « تذاكرنا المتنزهات يوماً ، وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الأماكن غوطة دمشق ، وقال آخرون : بل نهر الأبلة . وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم : نهروان بغداد ، وقال بعضهم : شعب بوان بأرض فارس ، وقال بعضهم : نوبهار بلخ ؛ فقال هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ . . قلنا : وما هى يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار للقتيبى والزهرة لابن داود »[٣] .

---

(١) محمد كرد على فى مقدمة « الأشربة » ص ٦ .

(٢) مقدمة « أدب الكاتب » .

(٣) « الأشربة » نشر محمد كرد على ص ٩ .

وقد عد ابن خلدون كتابه « أدب الكاتب » من دواوين الأدب الأربعة .

وكثرت مؤلفات ابن قتيبة فى مختلف علوم الدين واللغة والأدب حتى أربت على الخمسين فى قول كثير من العلماء ، وزادها بعضهم إلى ستين ونيف ، وبلغ بها آخرون إلى زهاء ثلاثمائة[1] .

---

(١) « تفسير سورة الإخلاص » ١٢٠/١٢١ .